

الباب الثالث

ترجمة الإمامي الطبري وابن كثير

أ. ترجمة الإمام ابن جرير الطبري

اسمه ونسبه: هو الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ المعروف المشهور: مات فيما ذكره أبو بكر الخطيب يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة (ت: ٣١٠) ودفن يوم الأحد بالغداة في دار برجة يعقوب، ولم يغير شبيهه، وكان السواد في شعر رأسه ولحيته كثيرا. ومولده سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين، وكان أسمر الأدمة أعين نحيف الجسم مديد القامة فصيح اللسان.^١

استوطن بغداد وأقام بها إلى حين وفاته. وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفة وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله عز وجل، عارفا بالقرآن بصيرا بالمعاني، فقيها بأحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفا بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في تفسير القرآن لم يصنف أحد مثله.^٢

^١ على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته (رياض: دار الرشد، ٢٠٠٥)، ٢٥.

^٢ على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٢٦.

همة أبي جعفر: قال الخطيب: وسمعت علي بن عبيد الله اللغوي السمسمي يحكي أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، قال: وقال أبو حامد الاسفرائيني الفقيه: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً أو كلاماً هذا معناه. وحدث عن القاضي أبي عمر عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي القاسم بن عقيل الوراق أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفتى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله ماتت الهمم، فاختصره في نحو مما اختصر التفسير. وحدث عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف «كتاب الصلة» وهو كتاب وصل به تاريخ ابن جرير: أن قوماً من تلاميذ ابن جرير حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة، وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق إلا بحسن عناية الخالق^٣.

هفته في طلب العلم: قال أبو جعفر: كنا نكتب عند محمد بن حميد الرازي فيخرج الينا في الليل مرات ويسأل عما كتبناه ويقرؤه علينا، قال: وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي، وكان في قرية من قرى الري بينها وبين الري قطعة، ثم نعدو كالجنانين حتى نصير إلى ابن حميد فنلحق بمجلسه.

^٣علي عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٢٧.

وكتب عن أحمد بن حماد «كتاب المبتدئ والمغازي» عن سلمة بن المفضل عن محمد بن إسحاق وعليه بنى تاريخه. ويقال إنه كتب عن ابن حميد فوق مائة ألف حديث^٤.

أصحاب أبي جعفر: عن أبي العباس البكري من ولد أبي بكر الصديق قال: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبري ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزي ومحمد بن هارون الروياني بمصر فأرملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يموتهم وأضر بهم الحال، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه واتفقوا على أن يستهموا فمن خرجت عليه القرعة سأل الناس لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، فاندفع بالصلاة فإذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق عليهم، فأجابوه وفتحوا له الباب، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقليل هذا، وأشاروا إليه، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا ودفعها إليه، وقال: أيكم محمد بن جرير؟ فأشاروا إليه فدفع إليه خمسين دينارا، ثم قال: أيكم محمد بن هارون؟ فقليل هذا، فدفع إليه مثلها، ثم قال: وأيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقليل هو ذا يصلي، فلما فرغ من صلاته دفع إليه صرة فيها خمسون دينارا ثم قال: إن الأمير كان قائلا فرأى في النوم خيالا أو طيفا يقول له: إن الخامد طووا كشحهم، فبعث بهذه الصرة، وهو يقسم عليكم إذا نفدت أن تبعثوا إليه ليزيدكم^٥.

^٤ محمد بكر ساتيري، منهج الطبري في جامع البيان عن تأويل القرآن (مصر: دار الإفتاء، ٢٠٠١)،

^٥ على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٢١.

علم أبي جعفر: كان أبو كريب أحد شيوخ أبي جعفر شرس الخلق من كبار أصحاب الحديث، قال أبو جعفر: حضرت باب داره مع أصحاب الحديث، فاطّلع من باب خوخة له، وأصحاب الحديث يلتمسون الدخول ويضجّون، فقال: أيكم يحفظ ما كتب عني؟ فالتفت بعضهم إلى بعض ثم نظروا إلي وقالوا: أنت تحفظ ما كتبت عنه، قال قلت: نعم، فقالوا: هذا فسله، فقلت: حدثتنا في كذا بكذا وفي يوم كذا بكذا. قال: وأخذ أبو كريب في مسألة إلى أن عظم في نفسه فقال له: ادخل إليّ، فدخل إليه وعرف قدره على حديثه، ومكّنه من حديثه. وكان الناس يسمعون به فيقال إنه سمع من أبي كريب أكثر من مائة ألف حديث، ثم عاد إلى مدينة السلام فكتب بها ولزم المقام بها مدة وتفقه بها وأخذ في علوم القرآن. صار إلى الفسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومائتين، وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم، فأكثر عندهم الكتابة من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم، ثم عاد إلى الشام، ثم رجع إلى مصر، وكان بمصر وقت دخوله إليها أبو الحسن علي بن سراج المصري، وكان متأدبا فاضلا في معناه، وكان من دخل الفسطاط من أهل العلم إذا ورد لقيه وتعرض له، فوافي أبو جعفر إلى مصر وبان فضله عند وروده إليها في القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر، فلقية أبو الحسن ابن سراج فوجده فاضلا في كلّ ما يذاكره به من العلم، ويجيب في كلّ ما يسأله عنه، حتى سأله عن الشعر فرآه فاضلا بارعا فيه، فسأله عن شعر الطرمّاح وكان من يقوم به مفقودا في البلد، فإذا هو يحفظه، فسئل أن يمليه حفظا بغريبه فعهدى به وهو يمليه عند بيت المال في الجامع. وكان قد لقي بمصر أبا إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم المزني، فتكلما في أشياء منها الكلام في الاجماع، وكان أبو جعفر قد اختار من مذاهب الفقهاء قولاً اجتهد فيه بعد أن كان ابتداءً بالفقه في مدينة السلام على مذهب الشافعي رضي الله عنه، وكتب كتابه عن الحسن بن محمد بن

الصباح الزعفراني عنه، ودرسه في العراق على جماعة منهم أبو سعيد الاصطخري وغيره، وهو حدث قبل خروجه إلى الفسطاط^٦.

وقال أبو بكر ابن كامل: خرج إلينا ليلة أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ونحن نقرأ عليه كتاب قراءة أبي عمرو بن العلاء الكبير، فوجدنا نتناظر في بسم الله الرحمن الرحيم مع بعض إخواننا من الشافعيين، وهل هي من فاتحة الكتاب أم لا، وكان المجلس حفلا بجماعة من الفقهاء من أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأصحابنا، وكان يسميني في بعض الأوقات لقراءتي عليه الكسائي، فقال لي: كسائي فيم أنتم؟ فعرفته، فقال: وعلى مذهب من تتفقه؟ فقلت: على مذهب أبي جعفر الطبري، فقال: رحم الله أبا جعفر حدّثنا بحديث نوح بن أبي بلال عن سعيد المقبري عن أبي هريرة في بسم الله الرحمن الرحيم، ثم أخذ أبو بكر ابن مجاهد في مدح أبي جعفر الطبري وقال: بلغنا أنه التقى مع المزني فلا تسأل كيف استظهاره عليه والشافعيون حضور يسمعون، ولم يذكر مما جرى بينهما شيئاً^٧.

ثناء الناس عليه: وقال أبو بكر ابن المجاهد، قال أبو العباس يوما: من بقي عندكم - يعني في لجانب الشرقي ببغداد من النحويين؟ فقلت: ما بقي أحد، مات الشيوخ، فقال: حتى خلا جانبكم؟ قلت: نعم إلا أن يكون الطبري الفقيه، فقال لي: ابن جرير؟

^٦ محمد بكر الساتيري، منهج الطبري، ١٣.

^٧ محمد بكر الساتيري، منهج الطبري، ٢٣.

قلت: نعم، قال: ذاك من حدّاق الكوفيين. قال أبو بكر: وهذا من أبي العباس كثير، لأنه كان شديد النفس شرس الأخلاق، وكان قليل الشهادة لأحد بالحدق في علمه^{٤٢}.

وقال عبد العزيز بن محمد: فنظرة البردان محظوظة من العلماء النحويين، كان فيها أبو عبيد القاسم بن سلام ومسجده وراء سويقة جعفر معروف به، وكان فيها علان الأزدي ومسجده في هذا الموضع معروف به، وكان أبو بكر هشام بن معاوية الضير النحوي وكان فاضلا مسجده عند مسجد أبي عبد الله الكسائي، وكان بها أبو عبيد الله محمد بن يحيى الكسائي وعنه انتشرت رواية أبي الحارث عن الكسائي وقرأ عليه كبار الناس، ونزلها أبو جعفر الطبري وكان أبو جعفر قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفي الطب، وأخذ منه قسطا وافرا يدلّ عليه كلامه من الوصايا. وكان ظلّفا عن الدنيا تاركا لها ولأهلها يرفع نفسه عن التماسها، وكان كالتقارء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدّث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحويّ الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عاملا للعبادات جامعا للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها^{٤٣}.

ورعه وحسن تأدبه، وعبادته: قال: وكان شديد التوقي والحذر والنزاهة والورع، يدلّ على ذلك ما أودعه كتاب آداب النفوس المنبه على دينه وفضله. ومع ما كان فيه من الاشتغال

^{٤٢} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٤٢.

^{٤٣} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٤٥.

بالتصانيف والحديث والاملاء لا بد له مع ذلك من حزيه من القرآن، ويقال إنه كان يقرأ كل ليلة ربعا أو حضا وافرا^١.

كان ربما ناظر داود بن علي الأثبات في المسألة الفقه فيراه مقصرا في الحديث فينقله إليه، أو يكلمه في الحديث فينقله إلى الفقه، أو إلى الجدل إذا كان خصمه مقصرا فيهما، وكان هو مقصرا في النحو واللغة وإن كان عارفا بقطعة منه، وكان أبو جعفر مليا بما نهض فيه من أي علم كان، وكان متوقفا عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ولا يؤثرها إلى أن مات، وكان يحب الجد في جميع أحواله، وجرت مسألة يوما بين داود بن علي وبين أبي جعفر، فوقف الكلام على داود بن علي، فشق ذلك على أصحابه وكلم رجل من أصحاب داود بن علي أبا جعفر بكلمة مضرة، فقام من المجلس وعمل هذا الكتاب، وأخرج منه شيئا بعد شيء إلى أن أخرج منه قطعة نحو مائة ورقة، وكان ابتداء الكلام فيه بخطبة من غير إملاء، وهو من جيد ما عمله أبو جعفر ومن أحسنه كلاما فيه حملا على اللغظ عليه، ثم قطع ذلك بعد ما مات داود بن علي فلم يحصل في أيدي أصحابه من ذلك إلا ما كتبه منه مقدمو أصحابه ولم ينقل. فمن كتب هذا الكتاب منه أبو إسحاق ابن الفضل بن حيان الحلواني، قال أبو بكر ابن كامل وسمعناه منه عنه، وأبو الطيب الجرجاني وأبو علي الحسن بن الحسين بن الصواف وأبو الفضل العباس بن محمد بن المحسن وغيرهم. وقال الرواسي، وكان من

^١ علي عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٤٧.

مقدمي أصحاب داود بن علي: إن داود قطع كلام ذلك الإنسان الذي كلم أبا جعفر سنة مجازة له على ما جرى منه على أبي جعفر^{١١}.

ثم تعرض محمد بن داود بن علي للردّ على أبي جعفر فيما ردّه على أبيه، فتعسّف الكلام على ثلاث مسائل خاصة، وأخذ في سبّ أبي جعفر، وهو كتابه المنسوب إلى الرد على أبي جعفر ابن جرير. قال أبو الحسن ابن المغلس، قال لي أبو بكر ابن داود بن علي: كان في نفسي مما تكلم به ابن جرير على أبي، فدخلت يوماً على أبي بكر ابن أبي حامد، وعنده أبو جعفر، فقال له أبو بكر: هذا أبو بكر محمد بن داود بن علي الأصبهاني، فلما رأيته أبو جعفر وعرف مكاني رحّب بي وأخذ يثني على أبي ويمدحه ويصفني بما قطعني عن كلامه.

أدب أبي جعفر: قال أبو بكر ابن كامل: سألت أبا جعفر عن المسألة التي تناظر فيها هو والمزني فلم يذكرها لأنه كان أفضل من أن يرفع نفسه وأن يذكر على خصم في مسألة. وكان أبو جعفر يفضّل المزني فيطريه ويذكر دينه، وقال: جفا علي بعض أصحابه في مجلسه، فانقطعت عنه زماناً، ثم إنه لقيني فاعتذر إليّ كأنه قد جنى جناية ولم يزل في ترفّقه وكلامه حتى عدت إليه. وبلغنا أنه سئل بالفسطاط أن يرّد على مالك في شيء فردّ عليه في شيء كان الكلام فيه لابن عبد الحكم، وكانت أجزاء ولم تقع في أيدينا، ولعله مما منع الخصوم نشره.^{١٢}

^{١١} محمد بكر الساتيري، منهج الطبري، ٣٤.

^{١٢} علي عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٥٦.

تواضع أبي جعفر، وتودده لطلابيه: قال أبو بكر ابن كامل: جئت الى أبي جعفر قبل المغرب ومعي ابني أبو رفاعة وهو شديد العلة، فقال لي: هذا ابنك؟ فقال قلت: نعم، قال: ما اسمه؟ قلت: عبد الغني، قال: أغناه الله، وبأي شيء كنيته؟ قلت: بأبي رفاعة، قال: رفعه الله، أفلك غيره؟ قلت: نعم أصغر منه، قال: وما اسمه؟ قلت: عبد الوهاب أبو يعلى، قال: أعلاه الله، لقد اخترت الكنى والأسماء. ثم قال لي: كم لهذا سنة؟ قلت: تسع سنين، قال: لم لم تسمعه مني شيئاً؟ قلت: كرهت صغره وقلة أدبه، فقال لي: حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصلت بالناس وأنا ابن ثمانين سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين، ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معي مخللة مملوءة حجارة وأنا أرمي بين يديه، فقال له المعبر: إنه إن كبر نصح في دينه وذبت عن شريعته، فحرص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير^{١٣}.

وقال أبو العباس ابن المغيرة الثلاج: لما اعتل ابني أبو الفرج، وكان حسن الأدب ويتفقه على مذهب أبي جعفر، قال لي أبو جعفر: تقبل مني ما أصفه لك؟ فقلت: نعم، وكنت أتبرك بقوله ورأيه، قال: احلق رأسه واعمل له جوذاية سمينة من رقاق وأكثر دسمها وقدمها إليه وأطعمه منها حتى يمتلىء شبعاً، ثم خذ ما بقي فاطرحه على دماغه واحرص أن ينام على حاله تلك، فإنه يصلح إن شاء الله تعالى، ففعلت فكان سبب برئه. وأبو الفرج هذا مات قبل أبي جعفر بمديدة، وكان أبو الفرج هذا يتعسف في كلامه: تجاروا يوماً عند أبي جعفر فذكر الطبيخ فقال أبو الفرج: لكي أكلت طباهقة، قال أبو جعفر: وما الطباهقة؟ قال الطباهجة، ألا ترى أن العرب تجعل الجيم قافاً. فقال أبو جعفر: فأنت إذا أبو الفرق ابن الثلاق، فصار يعرف بأبي الفرق بن الثلاق، ويمزح معه بذلك.

^{١٣} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٥٨.

علمه بالطب: كان بأبي جعفر ذات الجنب تعتاده وتنتقض عليه، فوجه إليه علي بن عيسى طبيبا، فسأل الطبيب أبا جعفر عن حاله فعرفه حاله وما استعمل وأخذ لعلته، وما انتهى إليه في يومه ذاك، وما كان رسمه أن يعالج به، وما عزم على أخذه من العلاج، فقال له الطبيب: ما عندي فوق ما وصفته لنفسك شيء، والله لو كنت في ملتنا لعددت من الحواريين، وفقك الله. ثم جاء إلى علي بن عيسى فعرفه ذلك فأعجبه^{١٤}.

معاملته: وقال عبد العزيز بن محمد الطبري: أخبرني غير واحد من أصحابنا أنه رأى عند أبي جعفر شيخا مسنًا، فقام له أبو جعفر وأكرمه، ثم قال أبو جعفر: إن هذا الرجل ناله في ما قد صار له عليّ به الحق الكثير، وذلك أني دخلت إلى طبرستان، وقد شاع سبّ أبي بكر وعمر فيهما، فسألوني أن أملي فضائلهما ففعلت، وكان سلطان البلدة يكره ذلك، فاجتمع إليه من عرفه ما أمليته، فوجه إليّ، فبادر هذا وأرسل إليّ من أخبرني أني قد طلبت، فخرجت من وقتي عن البلد ولم يشعر بي، وحصل هذا في أيديهم فضرب بسبي ألفا^{١٥}.

قراءة أبي جعفر، وكتابه في القراءات: وحدث أبو علي الحسن بن علي الأهوازي المقرئ في «كتاب الاقناع» في إحدى عشرة قراءة قال: كان أبو جعفر الطبري عالما بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض، له في جميع ذلك تصانيف فاق بها على سائر المصنفين، وله في القراءات كتاب جليل كبير رأيت في ثمان عشرة مجلدة الا أنه كان بخطوط كبار ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ، وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور ولم يكن منتصبا

^{١٤} علي عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٥٩.

^{١٥} علي عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٦١.

للاقراء ولا قرأ عليه أحد إلا آحاد من الناس كالصفا شيخ كان ببغداد من الجانب الشرقي يروي عنه رواية عبد الحميد بن بكار عن ابن عامر. وأما القراءة عليه باختياره فإني ما رأيت أحدا قرأ به غير أبي الحسين الجبِّي وكان ضنينا به، ولقد سألته زمنا حتى أخذ عليّ به وقال: ترددت إلى أبي جعفر نحو من سنة أسأله ذلك زمنا حتى أجمرت عليه وسألته، وكنت قد سمعت منه صدرا من كتبه فأخذه عليّ جهته وقال: لا تنسبها إليّ وأنا حي، فما أقرأت بها أحدا حتى مات رحمه الله في شوال سنة عشر وثلاثمائة. وقال أبو الحسين الجبِّي: ما قرأ عليه به إلا اثنان وأنت ثالثهم، ولا قرأ عليه أحد إلى أن مات سنة ثمانين وثلاثمائة^{١٦}.

ومن كتبه: كتاب الفصل بين القراء، ذكر فيه اختلاف القراء في حروف القرآن، وهو من جيد الكتب، وفصل فيه أسماء القراء بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وغيرها، وفيه من الفصل بين كل قراءة، فيذكر وجهها وتأويلها والدلالة على ما ذهب إليه كل قارئ لها، واختياره الصواب منها، والبرهان على صحة ما اختاره، مستظها في ذلك بقوته على التفسير والاعراب الذي لم يشتمل على حفظ مثله أحد من القراء، وإن كان لهم رحمهم الله من الفضل والسبق ما لا يدفع ذو بصيرة، بعد أن صدره بخطبة تليق به، وكذلك كان يعمل في كتبه: أن يأتي بخطبته على معنى كتابه، فيأتي الكتاب منظوما على ما تقتضيه الخطبة، وكان أبو جعفر مجودا في القراءة موصوفا بذلك يقصده القراء البعداء ومن الناس للصلاة خلفه يسمعون قراءته وتجويده^{١٧}.

^{١٦} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٦٣.

^{١٧} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٦٣.

وقال أبو بكر ابن كامل، قال لنا أبو بكر ابن مجاهد، وقد كان لا يجري ذكره إلا فضله: ما صنف في معنى كتابه مثله. وقال لنا: ما سمعت في المحراب أقرأ من أبي جعفر، أو كلاماً هذا معناه. قال ابن كامل: وكان أبو جعفر يقرأ قديماً لحمزة قبل أن يختار قراءته.

حسن تعليمه: وكان عند أبي جعفر رواية ورش عن نافع عن يونس بن عبد الأعلى عنه، وكان يقصد فيها، فحرص على ما بلغني أبو بكر ابن مجاهد مع موضعه في نفسه وعند أبي جعفر أن يسمع منه هذه القراءة منفرداً، فأبى إلا أن يسمعها مع الناس، فما أثر ذلك في نفس أبي بكر، وكان ذلك كرهاً من أبي جعفر أن يخصّ أحداً بشيء من العلم، وكان في أخلاقه ذلك، لأنه كان إذا قرأ عليه جماعة كتاباً ولم يحضره أحدهم لا يأذن لبعضهم أن يقرأ دون بعض، وإذا سأله إنسان في قراءة كتاب وغاب، لم يقرئه حتى يحضر، إلا كتاب الفتوى فإنه كان أيّ وقت سئل عن شيء منه أجاب فيه. وكتابه في القراءات يشتمل على كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام لأنه كان عنده عن أحمد بن يوسف الثعلبي عنه وعليه بنى كتابه^{١٨}.

تفسير أبي جعفر: وحدث فيما أسنده إلى أبي بكر ابن بالويه قال، قال لي أبو بكر محمد بن إسحاق، يعني ابن خزيمة: بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير، قلت: نعم كتبنا التفسير عنه إملاءً، قال: كله؟ قلت: نعم، قال: في أي سنة؟ قلت من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين، قال: فاستعاره مني أبو بكر وردّه بعد سنين، ثم قال: نظرت فيه من أوله إلى آخره،

^{١٨} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٦٤.

وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة؛ قال: وكانت الحنابلة تمنع منه ولا تترك أحدا يسمع عليه^{١٩}.

ومن كتبه: كتابه المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، قال أبو بكر ابن كامل: أملى علينا كتاب التفسير مائة وخمسين آية ثم خرج بعد ذلك إلى آخر القرآن فقرأه علينا وذلك في سنة سبعين ومائتين، واشتهر الكتاب وارتفع ذكره. وحمل هذا الكتاب مشرقا ومغربا وقرأه كل من كان في وقته من العلماء وكلّ فضّله وقدمه. قال أبو جعفر: حدثني به نفسي وأنا صبي. قال عبد العزيز بن محمد الطبري: كان أبو عمر الزاهد يعيش زمانا طويلا بمقابلة الكتب مع الناس، قال أبو عمر: فسألت أبا جعفر عن تفسير آية فقال: قابل بهذا الكتاب من أوله إلى آخره قلت: فقابلت، فما وجدت فيه حرفا واحدا خطأ في نحو ولا لغة.

قال أبو جعفر: استخرت الله تعالى في عمل كتاب التفسير وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن أعمله فأعاني. وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني: أخبرني شيخ من جسر ابن عفيف قال: رأيت في النوم كأني في مجلس أبي جعفر والناس يقرؤون عليه كتاب التفسير، فسمعت هاتفا بين السماء والأرض يقول: من أراد أن يسمع القرآن كما أنزل فليسمع هذا الكتاب. وقال أبو بكر محمد بن مجاهد: سمعت أبا جعفر يقول: إني أعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته^{٢٠}.

^{١٩} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٦٨.

^{٢٠} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٧٢.

مروءته وحسن أخلاقه ونبله: قال عبد العزيز بن محمد: وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره، نظيفاً في باطنه، حسن العشرة لمجالسيه، متفقداً لأحوال أصحابه، مهذباً في جميع أحواله، جميل الأدب في مأكله وملبسه وما يخصه في أحوال نفسه، منبسطة مع إخوانه حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة، وربما جيء بين يديه بشيء من الفاكهة فيجري في ذلك المعنى ما لا يخرج من العلم والفقه والمسائل حتى يكون كأجدّ جدّ وأحسن علم. وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكنه المكافأة عليه قبله وكافأه، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأة عليها ردها واعتذر إلى مهديها. ووجه إليه أبو الهيثم ابن حمدان ثلاثة آلاف دينار، فلما نظر إليها عجب منها ثم قال: لا أقبل ما لا أقدر على المكافأة عنه، ومن أين لي ما أكافئ عن هذا؟ فقيل: ما لهذا مكافأة إنما أراد التقرب إلى الله عزّ وجل بهذا، فأبى أن يقبله وردّه إليه. وكان يختلف إليه أبو الفرج ابن أبي العباس الأصبهاني الكاتب يقرأ عليه كتبه، فالتمس أبو جعفر حصيراً لصقّة له صغيرة، فدخل أبو الفرج الأصفهاني وأخذ مقدار الصقّة واستعمل له الحصير متقرباً بذلك له وجاءه به، وقد وقع موقعه، فلما خرج دعا ابنه ودفع إليه أربعة دنائير، فأبى أن يأخذها وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصير إلا بها^{٢١}.

وكان أبو جعفر كبير اللحية، حسن القيام على نفسه، لا يأكل من الخبز إلا السميد لأجل غسل القمح لأنّ من مذهبه أن الشمس والنار والريح لا تطهر نجسا، وكان ربما أكل شيئاً من العنب الرازقي والتين الوزيري والرطب، وربما أخذ له من اللبن الحليب من غنم ترعى فيصقّى ويجعل في قدر على النار حتى يذهب منه جزء ثم يثرد في الاناء ويصبّ عليه اللبن الحارّ ويدعه حتى يبرد ويطرح عليه الصعتر وحبّة السوداء والزيت، وكان يكثر من الاسفيداج والزيراج، وكان ربما أكل

^{٢١} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٧٥.

بالحصرم في وقته، وكان لا يعدم في الصيف الحيس والريحان واللينوفر، فإذا أكل نام في الخيش في قميص قصير الأكمام مصبوغ بالصندل وماء الورد، ثم يقوم فيصلي الظهر في بيته، ويكتب في تصنيفه إلى العصر، ثم يخرج فيصلّي العصر ويجلس للناس يقرىء ويقرأ عليه إلى المغرب، ثم يجلس للفقهاء والدرس بين يديه إلى عشاء الآخرة، ثم يدخل منزله وقد قسم ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه والخلق كما وفقه الله عز وجل^{٢٢}.

ب. ترجمة الإمام ابن كثير

إسمه ونسبه: هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع، الشيخ الإمام العلامة عماد الدين أبو الفداء ابن الشيخ شهاب الدين أبي حفص القرشي البصري الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير، وُلد رحمه الله باتفاق المؤرخين عام سبعمائة للهجرة، وُلد بقرية شرقي بصرى من أعمال دمشق، ومات والده وهو في الرابعة. وقال ابن العماد: " ولما بلغ السابعة من عمره توفي والده، وقال ابن حجر رحمه الله: "مات أبوه سنة ٧٠٣هـ، وَكَشَأَ هُوَ بِدِمَشْقَ، وقيل: ولد في قرية صغيرة من قرى مدينة بصرى من أرض حوران في بلاد الشام، اسمها "مجدل" وذلك سنة سبعمائة من الهجرة، لما كان أبوه خطيباً بها. وقال الزركلي: " ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع

^{٢٢} على عبد العزيز الشبل، ترجمة ابن جرير الطبري وعقيدته، ٧٥.

أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق، تناقل الناس تصانيفه في حياته.^{٢٣}

نشأته وحياته، ومكانته العلمية وثناء العلماء عليه: نشأ رحمه الله في بيت متدين فقد كان والده خطيباً كما تقدم، وكان ذلك له الأثر الكبير في نبوغه، ونشأ يتيماً حيث مات والده وهو في الرابعة وقيل السابعة من عمره كما تقدم، وتحولت أسرته إلى دمشق، ونزلت في الدار المجاورة للمدرسة النورية. رباه أخوه الشيخ عبد الوهاب وبه تفقه في مبادئ أمره. ويحدثنا عن نفسه رحمه الله فيقول: "وكانت وفاة الوالد في شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمئة، في قرية مجيدل القرية، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتونة، وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم، ثم تحولنا من بعده في سنة سبع وسبعمئة إلى دمشق صحبة الأخ كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رقيقاً شفوفاً، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين، فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر."^{٢٤}

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله مبيناً مكانته العلمية: "قدم دمشق وله نحو سبع سنين سنة ست وسبعمئة مع أخيه بعد موت أبيه وحفظ التنبيه، وعرضه سنة ثمان عشرة، وحفظ مختصر ابن الحاجب، وتفقه بالبرهان الفزاري والكمال ابن قاضي شهبه، ثم صاهر المزني، وصحب ابن تيمية، وقرأ في الأصول على الأصبهاني، وألف في صغره أحكام التنبيه، فيقال: إن شيخه البرهان أعجبه

^{٢٣} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم (القاهرة: دار الحضارة، ٢٠٠٨)،

^{٢٤} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٢٥.

وأثنى عليه... وكان كثير الاستحضر قليل النسيان جيد الفهم، وكان يشارك في العربية ويستحضر التنبيه ويكرر عليه إلى آخر وقت وينظم نظماً وسطاً، قال ابن حجي: ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه، وقد لازمته ست سنين، وقد ذكره الذهبي في معجمه المختص فقال: الإمام المحدث المفتي البارع، ووصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضر جماعة منهم الحسيني وشيخنا العراقي وغيرهما، وسمع من الحجار والقاسم بن عساكر وغيرهما، ولازم الحافظ المزني وتزوج بابنته، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وأخذ عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية فأكثر عنه، وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام. وقال ابن حبيب فيه: إمام ذوي التسييح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بقوله وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط.^{٢٥}

قال الذهبي رحمه الله: "الفقيه المفتي المحدث ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الشافعي، ولد بعد السبعمئة أو فيها وسمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، وله عناية بالرجال والمتون والفقه، خرج وألف وناظر وصنف وفسر وتقدم. وقال عنه أيضاً: "الإمام الفقيه المحدث البارع عماد الدين درس الفقه وأفتى وتفهم العربية والأصول، ويحفظ جملة صالحة من المتون والرجال وأحوالهم، وله حفظ ومعرفة.^{٢٦}

^{٢٥} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٢٦.

^{٢٦} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٢٦.

وقال السيوطي رحمه الله: "الإمام المُحدث الحافظ ذو الفضائل، ...، لَهُ التَّفْسِير الَّذِي لم يُؤَلَّف على نمطه مثله، ...، العُمْدَة فِي علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه وَعَلله وَاختلاف طرقه وَرِجَاله جرحاً وتعديلاً. ومن قرأ في كتب هذا الإمام عرف قدره وعلو مكانته في العلم ورسوخه رحمه الله رحمة واسعة^{٢٧}."

شيوخه: تلقى العلم رحمه الله تعالى على يد ثلة من أهل العلم والتقى منهم: عيسى المطعم وأحمد بن الشيخة، والقاسم بن عساكر، وابن الشيرازي، وإسحاق الأميدي، ومحمد بن الزراد، وأجاز له من مصر أبو الفتح الدبوسي، وعلي بن عمر الوائلي، ويوسف الخنتي وغر واحد واحد، ولازم الحافظ جمال الدين المزي كثيراً، وبه انتفع، وتخرج، وتزوج بابنته، وقرأ أيضاً على ابن تيمية كثيراً، وسمع منهم ومن غيرهم.^{٢٨}

مؤلفاته: ساهم رحمه الله تعالى في خدمة الدين بكتابة كثير من المؤلفات المفيدة التي انتفع بها الناس من هذه الكتب ما يلي: تفسير القرآن العظيم، طبقات الفقهاء، ومناقب الشافعي، البداية والنهاية، اختصار علوم الحديث، التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل، خرج أحاديث مختصر ابن الحاجب، وشرح في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه، ورتب مُسند أحمد على الحُرُوف وضم إليه زوائد الطبراني وأبي يعلى، وغيرها^{٢٩}.

^{٢٧} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٢٧.

^{٢٨} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٢٨.

^{٢٩} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٣٢.

وفاته: توفي في شهر شعبان من سنة أربع وسبعين وسبعمائة، وَكَانَ قد أضرَّ في أواخر عمره،

ودفن عند شيخه ابن تيمية في مقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق، ورثاه بعض طلبته.^{٣٠}

منهجه في التفسير: إن الناظر في تفسير هذا الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله يعلم رسوخه

في العلم، فامتاز هذا التفسير بميزات متعددة توضح منهج الحافظ في كتابه فمنها^{٣١}:

- امتاز هذا التفسير بسهولة العبارة وجزالتها، بأسلوب مختصر.
- يذكر الروايات بأسانيدھا في الغالب، ويحكم على الروايات في الغالب، فإن كانت ضعيفة بين علتھا، ويسكت عن بعض الروايات فلم يذكر لها حكماً.
- يفسر القرآن بالقرآن، حتى يتبين المراد، وأحياناً يذكر الآيات المتشابهة، ويذكر القراءات، وأسباب النزول.
- ثم إنه في آيات الصفات سلك مسلك الحق والصواب بخلاف كثير من المفسرين.
- فإن لم يجد ما يفسره بالقرآن فسرّه بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وينقل أقوال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ويذكر أقوال التابعين ومن تبعهم، بل إنه ينقل حتى عن الإمام الطبري رحمه الله.

وهذه الأمور لا تخفى على طالب علم قرأ في هذا الكتاب العظيم. وستقتبس شيئاً من كلامه

رحمه الله يبين منهجه في التفسير فقال رحمه الله: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن،

^{٣٠} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٣٤.

^{٣١} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٤٥.

فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، ...، وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

وبين منهجه من الإسرائيليات فقال رحمه الله: "هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتييل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أجمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، ...، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم، فأما من حكى خلافا في مسألة ولم

يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب.^{٣٢}

ثم بين أنه إذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فإنه يُرجع إلى أقوال التابعين خاصة كبارهم فقال رحمه الله: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير...، ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.^{٣٣}

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن

^{٣٢} لطيف حسن خان، ابن كثير ومنهجه في تفسير القرآن العظيم، ٥٥.

^{٣٣} صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين (دمشق: دار الآمان، ٢٠٠٨)،

الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليفتن اللبيب لذلك، والله الهادي.^{٣٤}

ثم ذكر قول شعبة بن الحجاج وغيره بأن أقوال التابعين في الفروع ليست حجة "أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.^{٣٥}

وبين رأيه في تفسير القرآن بمجرد الرأي وأن هذا حرام لا يجوز. قال السيوطي رحمه الله: "له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله." وصدق رحمه الله، نسأل الله العظيم أن يغفر له ويرفع درجته في عليين، والحمد لله رب العالمين.

^{٣٤} صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين، ١٤٥.

^{٣٥} صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين، ١٤٧.